سلطة النص القرآني وحدود التأويل عند مصطفى ناصف –مسؤولية التأويل أنموذجا–

The authority of the Qur'anic text and the limits of interpretation by Mustafa Nassef- responsible for interpreting as a model-

سناء حركاتي[1]، شراف الدين شناف[2]

[1]جامعة باتنة (الجزائر)، sana.harkati@univ-batna.dz

[2]جامعة باتنة (الجزائر)، charafbatna@yahoo.fr

مخبر: الشعرية

تاريخ الاستلام: 2023/01/29 تاريخ القبول: 2023/05/21 تاريخ النشر: 2023/12/10

ملخص: يتناول هذا المقال دراسة معرفيّة تحليليّة حول العلاقة التي تربط بين النص القرآني والتأويل، ما كُنه هذه العلاقة؟ وما أثر التّأويل في توجيه سلطة القارئ؟ وهل للقارئ سلطة عند تأويله للنّص القرآني؟ وما هي حدود التّأويل التي ارتآها مصطفى ناصف عند محاورة النّصوص القرآنية؟ وعلى هذا الأساس الإشكالي ركزت على: علاقة النّص المقدّس بالتّأويل، أنواع القرّاء وحدود التّأويل وآلياته حسب مصطفى ناصف، وكيف تكون القراءات المتعدّدة متعاضدة لخدمة النّص وتحري معانيه ومقاصده .

كلمات مفتاحية: نصقرآني؛ سلطة؛ تأويل؛ آليات؛ حدود .

Abstract:

This article deals with an analytical cognitive study on the Relationship between the Qur'anic text and interpretation, what is this relationship? What is the effect of interpretation in directing the authority of the reader? Does the reader have authority when interpreting the Qur'anic text? And what are the limits of interpretation that Mustafa Nassif saw when discussing Qur'anic texts? On this problematic basis, I focused on: the relationship of the sacred text with interpretation, the types of readers, the limits and mechanisms of interpretation according to Mustafa Nassif, and how the multiple readings are mutually supportive to serve the text and investigate its meanings and purposes.

Keywords: Quranic text;authority; interpretation; mechanisms; limits

سناء حركاتي: sana.harkati@univ-batna.dz

1. مقدمة:

ارتبط الإنسان بالنّصوص الدّينية منذ عرفها، وحاول فهمها والتّواصل معها، للأخذ بما جاء فيها من مناهج حياتيّة، وإن كانت كل النّصوص الدّينيّة قد حُرّفت، فإنّ النّص القرآنيّ حافظ على كيانه وماهيته كما أُنزل على الرّسول صلّى الله عليه وسلم؛لأنّه محفوظ من الله عزوجل :"إِناَّ نَحْنُ نَزَّلْناَ الذِّكْر و إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ".. وقد نشأت بين القارئ (المكلف) والنّص القرآني علاقة جدليّة يتم فرزها من خلال القراءة والتّأويل، وقد أصبح هذا الموضوع مستحوذا على السّاحة النّقديّة بكل ما فيه من علائق: سلطة النّص، سلطة القارئ، ماهية النّص، حدود التّأويل، حرمة النّص وغيرها... ويبقى الجدل بين الطرفين سلطة القرآن وسلطة القارئ فهناك من يرجح الكفة الأولى مطلقا وهناك من يرجح الكفة الثانية، وهناك من يحاول جعل العلاقة تكامليّة بين هذا وذاك وخلق حدودا للتأويل.

وإن كانت العلاقة بين التأويل والنّص تتأرجح بين السلطتين، فإنّ النّص القرآني له حرمته وقدسيته وحدوده، لأنّه يمتلك امتياز الصّحة والبيان وتجاوز حدود الزمكانيّة، فهو يفرض أدواته وقواعده وأساليبه وعلى المؤول أن يمتلك المعرفة والدربة.

وفي هذا المقال سنحاول الكشف عن الجدل القائم بين السلطتين وبيان آليات النّزاع وأدواته، والعلائق القائمة بين النّص المقدس والتّأويل من خلال رؤية "مصطفى ناصف" لهذا الموضوع، وقد سلطنا الضوء على كتابه "مسؤولية التأويل". كما حصرنا إشكالية هذا البحث في مجموعة من التّساؤلات: ما هو التّأويل؟ وما أثره في توجيه سلطة القارئ؟ وما العلاقة بين المؤوّل والنّص القرآني؟ وما هي حدود التّأويل التي ارتآها "ناصف" عند محاورة النّصوص القرآنيّة؟

قبل الولوج في خضم الجدال والنزاع لابد من بيان مفهوم التأويل ومحاولة ضبطه، مع بيان أثره في توجيه سلطة القارئ.

2. مفهوم التأويل وأثره في توجيه سلطة القارئ:

1.2. مفهوم التأويل:

قبل استنطاق أيّ نصّ وتأويله يجب أولا معرفة ما هو التّأويل، وبما إن التّأويل هنا مرتبط بالنّص المقدّس "القرآن" والمؤوّل العربيّ، فسنكتفي بالمفهوم العربي للتّأويل، لضبطه وعدم الخروج عن المسار المناسب والصحيح.

التّأويل لغة: ذكر في القاموس المحيط أنّ التّأويل هو: "أول الكلام تأويلا وتأوّله: دبره وقدّره وفسّره، والتّأويل: عبارة الرؤيا". (آبادي، 2012، صفحة 963)

أما في المعجم الوسيط فقد ذُكر أنّ التّأويل "يعود إلى جذر "أول"، آل –يؤول– أولا، أي صار إلى كذا، ومنه أوّل الشيء إليه: أرجعه، و"المآل" أي العاقبة والمصير، وأوّل الكلام فسّره... وأوّل فلان الأمر توسَّمَهُ وتَحَرَّاهُ"(أنيس و آخرون)

أي أنّ التّأويل من خلال جذره اللّغوي يحتمل معان كثير؛ ومن بينها (الرجوع أو الإرجاع، العاقبة أو المصير، والتّفسير والوضوح والتدبّر...) وهو محاولة لتحرّي المعنى والوصول إليه أو مقاربته، ونظرا لأنّ لفظ "التّأويل" يحتمل أكثر من معنى، فله الكثير من المفاهيم والتّعاريف الاصطلاحية. وسنورد البعض منها:

فالتّأويل هو تجاوز للمعنى الظاهر للفظ إلى معنى آخر غير متبادر، ليقول "عبد القاهر الجرجاني": "يدلّ اللّفظ على معناه الذي يوجهه ظاهره، ثم يعقله السّامع ومن ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا"(الجرجاني، 1998، صفحة 203)

وحسب هذا التعريف فإنّ التّأويل يمرّ بالعتبة الأولى (القراءة الشارحة) لفهم الظاهر والتمكّن من الوصول إلى المعنى الخفي مع مراعاة خصوصية اللّغة.

فالأهم إذن في العملية التّأويلية هو البحث عن الخفيّ والمسكوت عنه، لأنّ النّص هو بوح وكتمان وظاهر وخفيّ وذاك هو مدار التّأويل "ما يكمن خلف الظّاهر القاطع، ذلك الفراغ الخلاّق أو اللاوجود،

هو عنصر أساسيّ من عناصر الثّقافة الإنسانيّة يجب دائما أن نتجه إليه، المسكوت عنه لا يقلّ أهميّة بأيّة حال عما ظهر وحُسم أمره".(ناصف، نظرية التأويل، 2000، صفحة 90)

والتّأويل بوصفه علما ظهر عند العرب قديما، واختلفوا في فهمه واستعماله، نظرا لاختلاف المذاهب والأفكار والأيديولوجيّات. وبما أن التّأويل في ورقتنا هذه له علاقة بالنّص المقدّس القرآن، علينا أيضا رصد معناه في القرآن "المعنى القرآني أو الإلهي للتّأويل"

ولقد ورد لفظ "التّأويل" في القرآن الكريم في أكثر من موضع وبأكثر من معنى، ومن بينها:

قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ".(سورة آل عمران، الاية 7)

فالتّأويل في هذا الموضع جاء بمعنى "إرجاع المتشابه إلى معنى يحتمله ظاهره"، أي إرجاعه إلى ما يتفق مع الآيات المحكمات من الكتاب، ولا يصح إرجاع المعنى إلى الأهواء أو التّقاليد أو ما يناسب المذهب المتّبع.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم؛ في قصد سيّدنا يوسف عليه السّلام، جاء التّأويل بمعنى تأويل الأحاديث وتعبير الرؤيا، أي بيان حقيقتها الماديّة والواقعيّة من خلال الرؤيا –صورتها في المنام– قال تعالى: "وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِو ۚاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".(سورة يوسف، الآية21)

أمّا في قصة سيّدنا موسى عليه السّلام مع الخضر المذكورة في سورة الكهف، فإنّ التّأويل جاء بمعنى رد الأحداث وربطها بما ستكون عليه في المستقبل لقوله تعالى: " هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا"(سورة الكهف، الآية 77)

من خلال هذه الآيات، رأينا أن مصطلح "التّأويل" جاء متعدّد المعاني وفقا للنّص القرآنيّ ولحاجة الموقف أو الحديث.

2.2. أثر التّأويل في توجيه سلطة القارئ:

تعدّدت معاني مصطلح "التّأويل" وفق المعاجم العربيّة وفي القرآن الكريم واختلفت وهذا التّنوع والاختلاف لا نراه سلبيا وإنّما خالق للعمل والبحث الدؤوب عن المعنى والمقصديّة من زوايا مختلفة وبرؤى مختلفة للقرّاء وفقا لمرجعياتهم ووعيهم وكيفية تعاملهم مع النّص. فقد يكون هذا التّنوع حاملا للتّكامل بين القراءات المختلفة والمتصارعة أحيانا للوصول إلى الحقيقة أو مقاربتها.

إن كان في التّعامل مع النّصوص العادية التي ينتجها البشر، يمكن للقارئ أن يكون له كلام فوق الكلام، وله الحرية في أن يذهب بتأويله إلى أي اتجاه يريده اجتماعيا أو تاريخيا أو فلسفيا وإن كان بعيدا عن غايات النّص ومقاصده، فإنّ القارئ والمؤوّل للقرآن الكريم "النّص المقدس" عند المسلمين، لا يمكنه أن يكون حرا في قراءته وبعيدا عما اعتاد النّاس من عقائد وما ألفوه من المفسرين الأوائل للقرآن الكريم. فالساحة الثقافية الإسلامية تؤيد القارئ فيما يذهب إليه وتتقبل قراءاته مهما كانت غريبة أو جديدة أو بعيدة عن مقصدية النّص في حالة تأويل النّصوص الإبداعية، أما إن كان الحديث عن القرآن الكريم، فالقارئ الذي يحاول التّجديد في تأويله سيجد من يتعقّبه ويتفحّص قراءته ويقلبها وفق أوجه كثيرة، وقد يصل الحد إلى اتهام المؤوّل بتحريف القرآن ويُرمى بالكُفْر ويُكَفَّرُ.

فعندما ارتبط التّأويل بالقرآن الكريم في بداية نزول الوحي على الرسول ﷺ، هيمن عليهم –القراء الأوائل– وأفقدهم السّلطة القرائيّة رغم أنه كان بلغتهم وما تعارفوا عليه، إلا أن إعجازه وأسلوبه وبيانه زحزح السلطة إليه وأعجزهم فالتزم القارئ في ذاك الزمن بالتفسير البيّن المناسب للمعتقدات السّائدة –قراءة آمنة– وكانوا يرون بمكانة التفسير وعلو شأنه وحطّوا من شأن التّأويل و"إنّها تفرقة تعلي من شأن التّفسير وتحطُّ من شأن التّأويل على أساس من موضوعية الأوّل وذاتيّة الثاني"(أبو زيد، 1983، صفحة 11)

كما أنّ التّعامل مع النّص القرآنيّ يكون في إطار محدود والمؤوّل ملزم باحترام حُرمته وعدم الإسراف في القول أو الخروج عن المألوف والمعتقد "لأنّ للنّص حرمة على القارئ مراعاتها أثناء القيام بعملية التّأويل،

فحرية القارئ عليها استيعاب احترام نظام النّص"(بارة، 2005، صفحة 246)لأنّ النّص يحتاج لجهاد ومجاهدة لفهمه وخضوع وشعور بأنّك خادم لهذا النّص متواضع له، حينها سيفتح النّص المجال لمحاورته وفهمه وتأويله.

أما القول بالتفسير وطرح التّأويل ففيه بتر للحقيقة وابتعاد عن الصواب واختلال في موازين مقاربة النّصوص وتحرّي معانيها؛ فالنّص له مكنونات يبحث عن قارئ ومؤوّل متمرّس ليشتغل عليه ويضيء بعض جوانبه، لأنّ العلاقة بين النّص والمؤوّل علاقة ثقة وحوار مستمر؛ فالتأويل "مبناه الثّقة بالنّص، والإيمان بقدرته، والاشتغال بكيانه الذّاتي، والغوص المستمر على تداخلات بنيته"(ناصف، محاورات مع النثر العربي، 1997، صفحة 7)

وإن كان التّفسير هو الخطوة الأولى لقراءة النّص، فإنّ التّأويل هو قراءة موسّعة وحفر بين طبقات المعنى مما يعطي للقارئ حرية أكبر للبحث والحفر والغوص بين معانيه ولكن دون عبث حتى لا يخرج عن غاياته ومقاصده الأساسية ويستطيع مقاربة المعنى "التّأويل حوار خلاّق بين النّص والقارئ، حوار يضفي على النّص معنى يشارك فيه طرفان، ليس للنّص معنى بمعزل عن قارئ نشيط يستحثه، ويقلّب فيه الظّنّ بعد الظّنّ، ويتصوّره قادرا على الإلهام"(ناصف، محاورات مع النثر العربي، 1997، صفحة 7)على القارئ محاورة النّص والتّعاطف معه ليسمح له بالولوج إلى باطنه ويبوح له بمكنوناته.

وبعد المحاورة يأتي دور الاستقراء وبيان الدلائل والقرائن لما يريد الوصول إليه من تأويلات، لأنّ النّص منيع الجانب لا يظهر بواطنه، بل يحتاج لمن يملك القدرة على فك شفراته؛ فالمستوى الظاهر يمكن تحصيله من خلال القراءة الشارحة "ولكن المستوى الباطن شيء آخر لا بد لنا إذن من أن نطاول النّص ونزاوله، وأن نشق حجابه ونستخرج دوره"(ناصف، النقد العربي نحو نظرية ثانية، 2000، صفحة 179)

فالقارئ الباحث في تأويل النّص القرآنيّ، من خلال هذا المنظور يمكن تقسيمه إلى نوعين:

القارئ الأول؛ الذي واجه صعوبة في بيان المراد الشرعيّ للقرآن، لم يكن تأويله يخضع لمنهجية معينة وفي أغلب الأحيان يسكنه الخوف من التّجديد، فيلجأ إلى القراءات الآمنة خوفا من الوقوع في التأويل

المحذور أو المكروه، فقد كان في التّاريخ الإسلامي تجاوزات في تأويل القرآن وعُرف هذا النَّوع بالقراءات الممجوجة أو الممنوعة.

القارئ الحداثيّ؛ الذي يمكنه اليوم التخلّص من خوفه والاستعانة بالنّظريات الحديثة كنظريّة التلقي والتّداوليّة فهذا الاتجاه الألسني "أعاد ضوابط التّأويل فعصم المعنى من الشذوذ، وتحد من سلطة القارئ في إملاء أهوائه وميوله على النّص" (حمودة، 2005، صفحة 97)

ورغم ذلك فإنّنا لا نقبل كل القراءات للنّص القرآنيّ؛لأنّ تأويل القرآن يملك حساسيّة عقديّة، فعلى المؤوّل الحداثيّ مراعاة خصوصيّة التّعبير اللّغويّ والحساسيّة العقديّة، لأنّ الصّراع الذي نشب قديما بين الطوائف يعود لتّأويل فاقد للمسؤولية والوعي "فأصل خراب الدّين والدّنيا إنّما هو التّأويل الذي لم يرده الله ورسوله إنّه مراده، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا التّأويل"(الزهراني، 1976، صفحة 321)

إذا كان النّص القرآنيّ بهذه الحساسيّة العقديّة والمسؤوليّة الدينيّة أمام الله، فلا يمكن للقارئ أن يملك سلطة مطلقة ويغامر بالذهاب بعيدا عن المدلولات الحقيقية التي أرادها الخالق، فلا يمكن عزل النّص المقدس عن خالقه، رغم اشتماله للحوافز النّصية التي تغري المؤوّل بالحفر في طبقاته، إلا أنّ الحذر واجب، لأنّ النّص القرآني لا يقع ضمن ما يعرف بالتّناص أو له إطار تاريخي، فهو صالح لكل زمان ومكان وليس حبيس تاريخ معين بل هو صانع التاريخ.

3. سلطة النّص القرآني وحدود التأويل:

يرى "مصطفى ناصف" أنّ التّأويل هو ملجأ القارئ العربيّ وهو العدّة التي يتصدّى بها للحياة؛ لكي يكون اعتقاده سليما فعليه بتأويل النّص القرآنيّ وتأوّله "النّص القرآني في مفهوم القدماء مظهر النّذير والرّجوع إلى النّفس، وهو عُدّة الإنسان يتصدى به للحياة كي تستقيم له"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 7)لا يختلف اثنان في هذا الأمر، فالقرآن الكريم هو منهاجنا وسبيل نجاتنا في الدّارين الأولى والآخرة، أمّا الرّغبة في فهمه وتأويله فهي رغبة جليلة "الرّغبة في النّص القرآنيّ رغبة في الفهم والمعرفة، بل رغبة في سلامة الاعتقاد، فأكرم بها من رغبة وهدف صعب جليل"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 7) تم يبين لنا "ناصف" أن القارئ المؤوّل للنّص القرآني له صفات خاصة، فهو يقول:

"فلن تبلغ بعض ما تريد من النّص دون أن تتخلى عن كثير من الهوى والحقد والعجب، وما تعرف وما لا تعرف من العوائق التي تخلبك، وتستولي عليك. ذلك الحصن الحصين لا يفتح لك مغاليقه إلا إذا حنوت عليه، وخضعت له، وقاربته مُجلاً له، راغبا في صداقته، راهبا لقوّته"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 7).

فالقارئ حسب "ناصف" هو من توفرت فيه صفات معينة:

- السليم القلب من الحقد والعجب والهوى.
- المتواضع، الخاضع للقرآن.
- المجالُ للقرآن، الرّاغب في صداقته، الرّاهب لقوّته وإعجازه وتفرُّدِه واختلافه عن كل الكتب المقدسة.

والتّأويل وقف له القدماء خلاصة حياتهم وجعله المحدثين شغل عقولهم وقلوبهم لأنّ "هذا التّأويل عند العربيّ قبلة المجتمع كلّه. المجتمع باحث عن تأويل، لأنّه باحث عن نفسه فيم كانت؟ وإلام صارت؟ وإلام يكون مستقبلها"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 8)كما عرفوا عظمة التّأويل، عرف العرب خطورته إن حاد عن مساره، لذلك جعلوا للتّأويل أدوات، و" قد أفاض أهل الثقافة الإسلامية في تفصيل هذه الأدوات وسموها بأسماء مختلفة مثل: أسباب النّزول، وناسخ القرآن ومنسوخه، والأساليب، ودلالات العموم والخصوص، والمطلق والمبين، ولكن هذه الأدوات هي جسد التّأويل وباطنه الأريحية[*]"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 11)

وبعد أن بيّن لنا "ناصف" صفات المؤوّل وأسباب بحث العربيّ عن التّأويل، فهو يُبَيّن لنا وجوب ربط التّأويل بالدّليل "ويلٌ للتّأويل من أقفال القلوب، وويل له من الاستهانة بفكرة الدليل"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 12)أي كل قراءة للنّص القرآنيّ تتطلّب دليلا على صحتها مُسْتَمَدًّا من النّص القرآنيّ ولغته، إضافة إلى تعاضد هذا الدّليل مع الأريحية "الدّليل لا ينفصل عند العلماء عن هذه الأريحية. التّأويل يحتاج إلى مفاتيح، ويحتاج إلى مدارك وروح"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 12)

[*] الأريحية: هدى وسعة في الخلق، واستعداد للعطاء، وشوق وسر أيضا، كل امرئ تعرض للتأويل أدرك أنّ الروح مطلبه، فهي بحث في التأويل الروحي.

إذن فالتّأويل لا يكون مباحا لأيّ قارئ، كيفما شاء فيرهق النّص بتأويل فاسد مردود "إنّ بعض النّاس الآن يرون من حق كل امرئ أن يفهم من النّص ما يريد" (ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 14)

يكون للمؤوّل حقّ في قراءة النّص وفهمه كما يريد، عندما يكون هذا النّص مُنتجا إنسانيّا يمكن أن يُقْرأ قراءات مختلفة ومتصارعة، كل وفق منظوره الخاص وأيديولوجياته والمذهب الذي ينتمي إليه، أما النّص القرآنيّ المقدّس فلا عبث معه أو تطاول "هذا هو العبث الذي قاومه العلماء المسلمون بكل ما أوتوا من حجّة وتماسك"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 14)

والأمر الجميل الذي يُنبّه إليه "ناصف" أنّ قراءة القرآن وتأويله قراءة مستمرة، يتعاضد فيها العقل والقلب والرّوح. القراءات المتعدّدة المحمودة تتكامل وتتساند لفهم ظاهر المعنى وباطنه "الكتاب يحتاج إلى قراءة مستمرة والقراءة المتأخّرة تعطي ما عجزت عنه القراءة الأولى. تنمية الرّوح وعراكها مع تنمية العقل من أجل مباحث التراث"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 21)

ومما توصّل إليه المحدثون بعد إعادة قراءة النّص القرآني وتأويله "أنّ القرآن يكون ثقافة تواجه سائر الثقافات، قوامها الغبطة بالحياة، هذه الغبطة التي اعتبر كشفها أو توكيدها أمارة تنوير ذي طابع متميز"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 26)

ومعنى ذلك أنّ القرآن الكريم هو الجامع للمادي والرّوحي، الكامل المعجز، الممهّد للحياة المتوازنة، والكشف عن بواطنه ليس سهلا متاحا إنما يحتاج عقلا متّقدا ودربة وفهم ودراية. وقد يختلف العلماء في تأويله ويكون الاختلاف محمودا في حالات دون غيرها، وسنضرب مثال عن ذلك الاختلاف في المعنى المشروع، ويتعلّق ذلك عندما نواجه العبارات التصويرية (الاستعارية) التي تستبدل معنى مباشرا بآخر غير مباشر. وسنتابع مع "مصطفى ناصف" تأويلا لتعابير تصويريّة في سورة الضحى الذي لم يسلم من الاختلاف بين المفسرين والقرّاء فالمعنى نفسه لم يسلم من الاختلاف.

قال الله تعالى:"وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى

(7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11) "(سورة الضحى، (الآيات من 1 الى 11))

يقول ناصف: "إذا تتبعنا معنى "وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى" وجدنا نوعا من الاختلاف: يتحدّثون مثلا عن الحِكَم الإلهية من خلق اللّيل وجعله لباسا وسكنا ويتحدّثون عن معنى آخر؛ ففي الآية معنى الوحشة، وربما تأوّلوه بسكون الموت وظلمة القبور والغربة"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 42)

فهناك اختلاف واضح في المعنيين، ويمكننا المفاضلة بين هذه القراءات، كما يرى "ناصف" أنّ المفسرين قد يجمعون بين الضحى واللّيل في المعنى "فيقولون مثلا: إنّ ساعات اللّيل قد تزداد، وتنقص ساعات النّهار وقد يحدث العكس، فليست الزيادة لهوى وليس النقصان راجعا إلى العجز، كذلك الرّسالة وإنزال الوحي بحسب المصالح مرة، ومرة أخرى ينقطع كالليل إلى جوار النّهار، أحيانا يغلُب اللّيل، وأحيانا يغلُب النّهار" (ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 42)فهناك نلاحظ أنّ المؤوّل قد جعل الضحى واللّيل متساويين من حيث تناقص إحداهما وتزايد الآخر، وإن أسقطنا الأمر على الواقع فهذا منطقي – باعتبار الضحى هو النّهار– وتكون الظاهرة لاختلاف فصول السنة. أما تفسير معنى وربطه بنزول الوحيّ وانقطاعه فهذا أمر راجح أيضا؛ "فنور الضّحى الذي يوافي بعد ظلام الليل مناسب لنور الوحي الذي وافاه الرسول ﷺ بعد انقطاع الوحي" (ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 43)رغم اختلاف هذه القراءات، لا يمكننا أخذ وجه منها وطرح وجه آخر، وليس معنى هذا أنّنا لا نُفاضل بين تأويل وتأويل آخر.

ويتتبع "مصطفى ناصف" الاختلاف مرة أخرى، وذلك من خلال الكلمات الحسّية: (الضحى، سجى)

أوّل البعض كلمة الضّحى، على أنّه النّهار كلّه، في حين أنّ معناها عند المفسرين هو وقت انبساط الشّمس أي صدر النّهار الأول، فكيف نفسر ونعلل تركهم هذا المعنى إلى معنى أوسع؟ السبب في ذلك، اعتمادهم على السّياق.(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 44)

كما توسعوا في تأويل معنى كلمة "سجى": "أخذوا يؤوّلونه حسبما يتبادر لهم من مفهوم الآية الإجمالي، لذلك نجدهم على الأقل في بعض مراحل التّفسير لا يثبتون على رأي واحد"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 44)

فقد أولوا الكلمة على أنها: "سجا اللّيل إذا أقبل أو جاء أو إذا ذهب، أو إذا استوى أو استقر أو سكن، بل يمتد نطاق الاحتمالات إلى ما هو أبعد من ذلك، يقال: أظلم أو ركد أو اشتد ظلامه"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 44) معان كثيرة لكلمة واحدة، فهذا يجعلنا نقرّ أنّ الكلمات ليس لها معنى محددا وإنما يتغيّر المدلول ويتمايز "يجب أن يلاحظ إذن أنّ الكلمات في معانيها ليس لها سور يحيط بها بدقة، يعنى أنّه لا يمكن أن تدعي في يسر أنّ كلمة من الكلمات تحتوي على مقدار ثابت من المعنى"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 45)

الثّبات ليس فطرة في خلق الله عزّ وجل، فقد جعل الله التّغيّر والاختلاف ميزة كل مخلوقاته، ولا يستطيع إنسان اليوم أن يعيش بمقومات الأمس، بل علينا أن "ندرك أنّ مهمتنا الصعبة هي خلق موقف روحيّ ملائم نستطيع بفضله أن نواجه الحضارة الرّاهنة، ونستطيع بفضله السمو إلى مستوى آخر من فهم الإنسان لأصله ومستقبله"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 69)

كما يرى "مصطفى ناصف" "ضرورة بناء موقف كلّي شامل للفكر الإسلامي، ونحن نُنبّه هنا إلى هذا الموقف؛ لأنّ كثيرا من الذين يتناولون النّص القرآني قطعا أو موضوعات يعيشون في إطار جزئيّ... هذا الموقف الكلّيّ الشّامل يحتاج ببديهة النّظر إلى نظرة فلسفيّة؛ لأنّ الدّين ليس نظاما اجتماعيا أو أخلاقيا مستقلا، فما هو جميل وما هو خير لا ينفصل عما هو حق. أي أنّ الموقف الكلّي يحتاج إلى استيعاب العلاقات المعقدة بين القيم الإنسانية الكبرى التي اهتم بها جميعا القرآن الكريم"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 70)يدعو "ناصف" إلى موقف كلّي شمولي يُعوَّل عليه في تفضيل بعض وجوه المعنى على بعض، والموقف الكلّي هو الذي يوائم بين المتناقضات والثنائيات (العقل/الروح) و(الأنا/الآخر)و(التراث/الحداثة) وغيرها مما يشكل جزءا بذاته كُلا مع غيره.

"مصطفى ناصف" لا يؤمن بنوع واحد من التّأويل منغلق على ذاته، محدود في إطار ما (اللغة أو التاريخ أو المادة أو الرّوح)، ولا يؤمن بتأويل مُفْرِط مُفَرِّط للأسس والأدلة بعيدا عن النّص ومقاصده الأولى، فهو يحاول الجمع بين الجدّة والتّجديد في قراءة الكتاب المقدس ولكن وفق تأويل مسئول متوازن يستجيب "لتطورنا الثقافي، وتوالي إعادة تكوين عناصر الوحدة والصلة بين أجزائها المتعددة في ظل النظر المتجدد للكتاب العظيم حتى يستقيم لثقافتنا شكل متفاعل، وإيضاح الشكل الجماعي الموحد للثقافة أمر لا يستغني مطلقا عن هذا النظر وإعطائه ما يستحق من اعتبار"(ناصف، مسئولية التأويل، 2004، صفحة 79) فهذه دعوة صريحة من "ناصف" إلى تأويل شامل روحيّ، أساسه الاعتدال والتّوازن، منفتح على التّجديد ولكن مرتبط بأسس قارة وحدود لا يمكن تجاوزها من القرّاء، حتى تكون القراءات الجديدة محمودة خادمة للنّص المقدس لمقاربة المعنى أو المقصد.

ومن النتائج التي توصلنا إليها في هذه الورقة البحثية:

- التّأويل له معان كثيرة كالرّجوع أو الإرجاع، العاقبة أو المصير، التّفسير والوضوح والتّدبّر... جعلته يحتمل مفاهيم وتعاريف عدّة، وبالتّالي تختلف الغاية من القراءة للنّص. لكن الأمر المشترك في العملية التّأويلية هو البحث عن الخفيّ وما يكمن خلف الظّاهر، الوصول إلى الباطن ومحاورته.
- تعدد معاني "التّأويل" واختلافها في المعاجم والقرآن الكريم أمر إيجابي، نراه حافزا خلاّقا للعمل الدؤوب من قبل القرّاء وبحث دائم عن المعنى والمقصديّة والحقيقة من زوايا مختلفة وبرؤى مختلفة وفقا لمرجعيات القرّاء ونظرتهم للكون وكيفية تعاملهم مع النّصوص.
- النّص القرآني له حرمة، فإن كان المؤوّل يقول كلاما فوق الكلام ويذهب بتأويله إلى أي اتجاه يريده مع النّص الأدبي، فهو لا يستطيع مقاربة النص القرآني دون حذر ووعي ودراية وتمحيص ودليل، لأنّ القارئ الذي يحيد عن المتعارف عليه أو المنطق أو ما يمكن إثباته من خلال النّص سيجد من يتعقبه ويلاحقه، ويرد عليه قراءته ويُتّهم حتى بالعبث أو الكفر.

- عندما حاول القدامى تأويل القرآن، هيمن عليهم وأفقدهم السّلطة القرائية لإعجازه وبيانه رغم أنّه بلغتهم كما أنّ أغلب المحاولات كانت تهتم بالجزء لا بالكليات، والتزم القُرّاء آنذاك بالتّفسير ورأوا أنّ التأويل فيه خطر على معتقداتهم والنص القرآني.

لكن الاهتمام بالتّفسير وطرح التأويل، فيه بتر للحقيقة، فنحن نعلم أنّ التفسير ممهّد للتأويل وباعث له. كما أن النّص له مكنونات يبحث عن قارئ متمرّس ليشتغل عليها ويوضّحها.

- القرّاء نوعان:
  - قراء يلجؤون إلى القراءات الآمنة، خوفا منهم الوقوع في التّأويل المحذور أو المكروه.
  - قراء حداثيّون اتبعوا المناهج العلميّة والنّظريّات الحديثة مع الكثير من الدّربة والوعيّ والعمل الجاد، للوصول إلى تأويل جديد يبعث المعنى من ركوده المتوارث.
- يرى "مصطفى ناصف" أنّ التأويل هو ملجأ العربي الباحث عن الاستقامة وسلامة الاعتقاد، ويبين أيضا صفات القارئ المناسب لتأويل القرآن:-- (سليم القلب، متواضع، خاضع للقرآن ومجلّ له، راهب لإعجازه وقوته وتفرّده).
- ويرى "ناصف" أنّ التّأويل له أدوات تعصمه عن الزّلل: كأسباب النّزول، الأساليب، دلالات العموم والخصوص، المطلق والمبين...وإن كانت هذه الأدوات هي جسد التّأويل فباطنه الأريحيّة، وتبعا لذلك نصل إلى التّأويل الرّوحي الشّامل.
- لا يمكن –حسب "ناصف"– أن يكون التّأويل دون دليل، حتى لا يرهق القرّاء النّصوص بقراءات فاسدة مردودة.

نبّه أيضا "مصطفى ناصف" إلى تكامل التّأويلات وتعاضدها –القراءة المستمرة، يتساند فيها العقل والقلب والروح لفهم ظاهر المعنى وباطنه.

تتبعنا مع "مصطفى ناصف" تأويلا لعبارات تصويرية (استعارية) في سورة الضحى، هذا التأويل لم يسلم من الاختلاف، لكن هذا النوّع من الاختلاف المشروع الذي يقف على الدّليل، فكانت تلك التأويلات المختلفة متكاملة لمقاربة المعنى والحقيقة.

"مصطفى ناصف" لا يؤمن بنوع واحد من التّأويل منغلق على ذاته، محدود في إطار معين، ولا يؤمن بتأويل مفرط مُفَرِّط بعيد عن النّص ومقاصده الأولى، هو يحاول أن يضبط التّأويل وفق حدود تجعله متوازنا مسؤولا مستجيبا لتطورنا الثّقافي والحياة المعاصرة، محافظا على ديننا وهويتنا وأصالتنا.

وفي الأخير، يمكننا القول أنّ الممارسة التّأويلية مفتوحة أمام القرّاء، ولكن على القارئ أن يمتلك آليات التّأويل ويحترم ضوابطه فيفسح له المجال للوصول إلى آفاق رحبة، فإنّ مؤوّل النّص القرآنيّ تقع على عاتقه مسؤولية أكبر، فهو يتعامل مع نص مقدّس لامتلاكه امتياز الصّحّة والبيان وتجاوز حدود الزمكانية، فعليه الحذر والتّواضع وتحرّي الصدق للوصول إلى قراءة نافعة له ولغيره من المسلمين.

5. قائمة المصادر والمراجع:

1-إبراهيم أنيس، و آخرون. (بلا تاريخ). المعجم الوسيط. بيروت: دار الفكر.

2-أحمد عطية الزهراني. (1976). ابن القيم الجوزية بين التأويل والتفويض. المملكة العربية السعودية: كلية الشريعة الاسلامية.

3-سورة آل عمران،الآية 7.

4-سورة الضحى، (الآيات من 1 الى 11).

5-سورة الكهف، الآية 77.

6-سورة يوسف، الآية21.

7-عبد العزيز حمودة. (2005). الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص. الكويت: عالم المعرفة.

8-عبد الغني بارة. (2005).إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي المعاصر، مقاربة حوارية في الأصول المعرفية. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

9-عبد القاهر الجرجاني. (1998). دلائل الإعجاز في علم المعاني (المجلد 1). (محمد رشيد رضا، المحرر) لبنان: دار الكتب العلمية.

10-مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي. (2012). القاموس المحيط (المجلد 3). بيروت- لبنان: مؤسسة الرسالة ناشرون.

11-مصطفى ناصف. (1997). محاورات مع النثر العربي. الكويت: عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

12-مصطفى ناصف. (2000). النقد العربي نحو نظرية ثانية. الكويت: عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
13-مصطفى ناصف. (2000). نظرية التأويل (المجلد 1). جدة: النادي الأدبي الثقافي.
14-مصطفى ناصف. (2004). مسئولية التأويل (المجلد 1). مصر: والنشر والتوزيع والترجمة.
15-نصر حامد أبو زيد. (1983). فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي. لبنان: دار التنوير.